يوم من أيام مصر الخالدة بأنقرة

الغازى مصطفى كمال

بمدار المفوضية الملكية المصرية

للأستاذ أحمد رمزى

فى مساء يوم الأحد ٢٦ مارس سنة ١٩٣٣ شرف أتاتورك الغازى مصطفى كمال رئيس الجمهورية التركية وزعيم تركيا بزيارته ر المفوضية الملكية المصرية بأنقرة ، وكان ذلك فى منتصف ييل تماماً حين دقت الساعة الثانية عشرة ، وحدث هذا فى لحفلة التى أقامتها المفوضية بمناسبة عيد ميلاد المغفور له الملك أحمد اد الأول طيب الله ثراه . ولما دخل وقف المدعوون من رجال لحكومة وأعضاء السلك السياسى وغيرهم ، وقد تملكتهم دهشة ، لأنها كانت أول مرة يزور فيها الرئيس الغازى دار فوضية أجنبية ، إذ لم يسبق حدوث شىء من ذلك للسفارات ـ المفوضيات التى يتولاها السفراء والوزراء المفوضون ، فما بالك بزيارته لمفوضية على رأسها قائم بالأعمال !

وكتبت فى مذكراتى اليومية عن أثر هذه المفاجأة وقت دخوله ما يأتى : « كنت ترى فى عينيه بريقاً يشع من القوة لمعنوية الهائلة التى تعتمد على إرادة راسخة فعّالة ، وتلمس من لطرته الحادة قدرة وثقة فى النفس يدعمها إيمان ثابت وعقيدة ' تلين فى الرسالة التى سلمتها الأقدار إليه لخدمة بلاده وأمته » !

كان يوماً لا ككل الأيام التى عشتها لا أدرى كيف بتدأ ، ولا أشعر متى انتهى حتى مطلع الفجر ، إذ كان يحمل لىّ فى كل ساعة مفاجأة ، فقد أصبحنا كعادتنا لم نغير موعداً بقيام ، ولكن المفوضية كانت فى حركة دائمة منذ الصباح لبكر ، إذ حضر « العتالون » فأخذوا ينقلون كل شىء من مكاتبنا ، ويجىء الخدم بعدهم لترتيب الحجرات وتنسيقها لحفلة لمساء . وفى الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم زارنا مدير لمراسم أو التشريفات أو البروتوكول سمها كما شئت ، وكان اسمه شوكت نؤاد بك ، جاء لابساً بذلة « البونجور » ، وفى يده قبعته العالية ، ومعه فنازه ، حضر ليمرب لحضرة توحيد السلحدار بك القائم بأعمال المفوضية الملكية المصرية عن تهانى حكومة الجمهورية التركية وأمانيها الطيبة لجلالة ملك مصر المعظم ولشعب مصر ، وقد أفرغت هذه الزيارة فى قالب خاص من الود الصميم والمجاملة ، فكانت خير ما يعبر عن العواطف الودية الأكيدة التى تشعر بها تركيا نحو مصر ، ولما تناول القهوة والمرطبات انصرف مشيعاً بالاحترام اللائق .

وأمضينا اليوم قياماً لا نملك وقتاً يتسع لطعام أو راحة ، إذ المخابرات التلفونية لم تنقطع مع استانبول ، والخدم فى حركة وذهاب وإياب بين المحطة والمفوضية ، وبينهما وبين الدينة لاستكمال ما يلزم لمأدبة العشاء التى سيحضرها رئيس الوزراء والوزراء ، والتى ستعقبها حفلة ساهرة لمئات المدعوين .

وكنت مأخوذاً ذات اليمين وذات الشمال أتنقل بين الطابقين ، ولما وجدت برهة أخلو فيها لنفسى أخذت أرتب ملابس السهرة وكانت الساعة السادسة مساء ، فإذا بجرس التليفون يدق ويدعونى بسرعة إلى المستشفى العسكرى ، لأن القائم بالأعمال الأستاذ توحيد السلحدار بك قد أصيب فى حادث تصادم وقع بين سيارته وعربة نقل محملة بالرمال . فتركت ما بين يدىّ ، وخرجت مسرعاً إلى الطريق العام ، ومه لمحت سيارة أجرة من نوع فورد الخشبية ، وهى التى تحمل أربعة أو خمسة من الركاب يشتركون فيها ، حتى أشرت إليها بالوقوف وقفزت فيها ، وكان الأتراك يطلقون عليها اسم «قلبى قاشتى» ، وأهل أنقرة ينطقون الكاف قافاً ، ومعنى ذلك أخذ وهرب ، أى استلم واسلم رجليه للريح . وذهبت إلى المستشفى فأدخلت تواً إلى حجرة العمليات ، فوجدت توحيد بك هناك والدم قد عمر بدلته وقميصه ، ورأيت طبيب الغازى يعنى به ويضمد جرحاً كبيراً فى جبهته ، ويعالج ذلك برفق وتؤدة ، وقد بدا بعض الاصفرار على وجه الجريح ، ولكنه لم يفقد شيئاً من ثباته وهدوئه ورباطة جأشه . ولما أراد الطبيب أن يستعمل مخدراً يخفف من ألم الجرح وشدة وقع الصدمة رفض ذلك ، إذ تمثلت رجولته فى شجاعته وصموده واحتماله لما يشكو منه فى رأسه ويده ، فدهش من حضر لما رأوه يقظاً واعياً يحادثهم والطبيب يلازم عمله فى خياطة جرح الجبهة .

وكان معنا فى الحجرة نعمان رفعت بك وكيل الخارجية ، وقائد الحرس الجمهورى ، وهو ضابط يجمع فى شخصيته مظاهر الجندية التركية التى خلدتها المعارك والحروب الدائمة والأخطار المزمنة ، وكان شديداً فأطلقنا عليه « صاحب الضبط والربط » ، قال : « إنه حضر بأمر عال من فخامة رئيس الجمهورية ، وأن الأمر الصادر إليه يلزمه ألا يترك توحيد بك لحظة واحدة حتى يستعيد قواه ، وأن يتصل بالغازى مباشرة لأى حادث يطرأ . فشكره توحيد بك على هذه الالتفاتة ، وطلب إليه أن يرفع للرئيس شكر المفوضية وتقدير مصر قاطبة . ولما أتم الطبيب عمله وقام توحيد بك ، التفت إليه وأعلمه بأن واجبه كطبيب يحتم عليه أن ينصحه بأن يستريح هذه الليلة ولا ينهك نفسه بعمل » . فأجابه بغير تردد : « كيف أقبل الراحة وقد دعوت الناس لحفلة مليكى؟ إن إخلاصى يملى علىّ أن أحضر الحفلة ، أما الألم فشئ هين يسهل علىّ احتماله فى سبيل قيامى بواجبى نحو بلادى ، وقد اعتادت هذه الرأس أن تتحمل وتحمل الكثير » . ثم التفت إلى قائد الحرس ، وإلى وكيل الخارجية ، وقد أبديا كلاهما ضرورة الرفق بصحته والعودة للراحة . فقال : « أبلغا الغازى والحكومة التركية أننى بخير والحمد لله ، وإنى لعاجز عن التعبير عن شكرى لهذا الاهتمام الفائق الذى لا أعتبره موجهاً لشخصى ، بل لمليكى وبلادى » . وترك المستشفى مستنداً على ذراعى الطبيب وقائد الحرس ، وركبنا سيارة أوصلتنا إلى منزله ، واستأذن وكيل الخارجية والقائد ، وبقى معنا الطبيب لا يتركه حتى بدّل ملابسه ولبس ثياب السهرة ووضع أوسمته ، واتجهنا إلى دار المفوضية المصرية ، وقد استعدت لحفلة الليلة كأن لم يحصل شىء ، وكأن التصادم أمر قد كان لأيام مضت ، ولم يظهر على توحيد بك غير رباط الجرح واليد .

وكان الوقت قد أزف لحفلة العشاء التى تبدأ فى الثامنة ، وأخذ المدعوون من علية القوم يحضرون ويأخذون أماكنهم ، وفى مقدمتهم رئيس الوزارة التركية عصمت باشا ، وهو الرئيس الحالى للجمهورية ، وقبيل انتهاء المأدبة أخذ المدعوون للسهرة يفدون ، وهم من كبار رجال الدولة والسلك السياسى بأكمله المكون من ثلاثين هيئة بين سفارة ومفوضية ، وقد توزعوا فى أركان الدار وحجراتها ، وقد بدت تتألق فى رونقها وحلتها .

وكان الجميع يهنئون بالعيد ، ويستفسرون عن صحة توحيد بك ، ويبدون إعجابهم بعزيمته ، وقالت قرينة وزير النرويج « لا أقدر أن أطيل النظر إليه وهو على هذه الحالة ، فأرجو تنصحه ليعود إلى منزله فيستريح ، إذ أخشى أن ينفتح الجرح أى وقت فيسبب له تريفاً » . فقلت لها : « كيف يحصل هذا وطبيب الغازى يلازمه ملازمة الظل لا يتركه لحظة واحدة ؟ !

وفى منتصف الليل تماماً ، والناس فى شغل بأنفسهم ، وجماعات متفرقة ، بعضهم يرقص على نغمات الموسيقى ، وبعضهم يلعب الورق ، والمقصف عامر ، دخل الغازى فاستقبلته الفرقة بالنشيد الجمهورى ، ثم بنشيد مصر ، واتجه بخطوات ثابتة نحو القائم بالأعمال ، فعانقه على مرأى من الحاضرين ، وهنأه برباطة جأشه وقال : إنه يحضر إلى بيت مصر كما يحضر إلى بيته فهو صاحب الدار ، وإن مجيئه إلى المفوضية هو تحية منه للشعب المصرى فى عيد مليكه المعظم ، فبلغ مصر ذلك ، كما أنه تقدير منى لشخصك . ثم اتجه إلى ركن صغير بإحدى الصالات فجلس ومعه توحيد بك ، ووزير الخارجية توفيق رشدى بك ، وانضم إليهم صاحب السمو الملكى الأمير زيد وزير العراق المفوض بأنقرة ، فأجلسه الغازى إلى شماله على نفس المقعد ، وجلس الكونت دى شامبران سفير فرنسا ، ودارت فى تلك الجلسة أحاديث تناول الكثير من الشؤون ، ولم يأت الوقت بعد لإذاعتها . وفى السا الثالثة صباحاً طلب الغازى من توحيد بك أن يستريح وألح عا فى ذلك وقال له : إننى معجب بموقفك وتصميمك ، وأفهم ما عليك الواجب ، ولكنى أنا « مصطفى كمال » سأنوب عنك الترحيب بضيوفك . ونزل توحيد بك على إشارته ، ولازمته حـ ركب إلى منزله . ولما رجعت من توديعه ، إذا بوكيل الخارج يدعونى إلى الركن الجالس فيه الغازى ، وكان قد انضم إلى الجماع وزير المجر ، وها أنا أعطى القارئ صورة من بعض ما د من الحديث :

استؤنف الكلام بشأن المجر ، فذكر وزيرهم ما نزل بهم من الظلم وما حاق بهم من الاضطهاد ، وكأنه شعر بألم عميق أو أراد أن يستعطف الغازى على وطنه ، إذ ضرب مثلا لأنوا

الإرهاق التي يلاقيها ، فقال وقد اغرورقت عيناه : « لقد أصبح والدي تشيكوسلوفاكيا وصارت جدتي رومانية ليحافظا على أملاكنا ومزارعنا في البقاع التي انتزعت من وطننا ، وهكذا تشتتت أسرتنا وأصبحت مجرباً وحدي . فنظر إليه النازي محدقاً وقال : « إنما أنت رب عائلة ، ومواطن طيب القلب ، ولكنك بعيد عن أن تكون رجل سياسة . أنظر إليّ تجدني لست بصاحب عائلة ، ولم أشغل نفسي بطلب البنين ، وذلك لأكرس حياتي منذ نشأت لخدمة بلادي ». وكان الجنرال ناجي باشا ، وهو أستاذ النازي في الكلية الحربية ، قد انضم للجماعة فعقب على ذلك بقوله : « لك سبعة عشر مليوناً من الأولاد هم أبناؤك الترك ». وهنا قال وزير المجر كلمة لم تعجب القارئ وهي : « إنك تستطيع أن تدفع العدوان عن بلادك ، لأنك في الأناضول ، أما بلادي ، فهي بين الأعداء المحيطين بها من كل جانب » . فسأله النازي مسترسلا : « إلى أي عنصر تنتسب ؟ » فأجاب بغير تردد : « إلى العنصر التركي كأهل المجر جميعاً » . فضحك النازي وأجابه : « لا تنس أنكم ظلمتم قروناً حتى نهاية الحرب الماضية (١٤ — ١٩١٨) كان كل رأس مالكم وفخركم اللذين تتقربون بهما إلى شعوب أوربا وحكوماتها وسياسيها هو أنكم أعداء الترك الألداء ، وإنكم كنتم أول من تحرر من تحت نيرهم ، فأنتم كما ترى تدفعون ثمن الكفارة غالياً الآن » .

ثم التفت إلى سفير فرنسا ، وقد دنا الكونت استرودوج سكرتير السفارة الفرنسية من المجلس بإشارة من النازي ، فقال لخامته : قل له أن يحضر ورقاً وقلماً ، وأريد أن أملي عليه شيئاً . ولما أحضر الورق أملاه ما يأتي : « لا أستطيع بحال أن أقول للترك إن فرنسا صديقة لهم ، إذ كيف أصل لإقناعهم بذلك ؟ إن هذا لن يكون إلا بعمل ظاهر ، وهي لا تفعل شيئاً من ذلك ، حتى المعاهدة التي عقدناها أخيراً لم تصادق مجالسها النيابية عليها للآن » .

وانتقل الحديث إلى ذكر جنيف وتخفيض السلاح ومشروع اتفاق الدول الأربع العظمى : بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ، وهو المشروع الذي أطلق عليه اسم « الدير كتوار الرابع » إحياء لنظام المحالفة المقدسة بعد حروب « نابليون » . وهذا مشروع يبغضه النازي ، فتحمس كل التحمس وقال : « ما معنى الدول العظمى ؟ » وأشار إلى السفير أن يكلف استرودج بأن يكتب مرة أخرى ما سيمليه ، وأن ينقل ذلك إلى دولته فيما يلي : « إن فرنسا لن تكون لها سيطرة على تركيا ، وإن تركيا لن تذعن لشيء تقرره فرنسا مع تلك الدول ما دمت أنا على قيد الحياة ، ولو فرضنا أن الحكومة قبلت ذلك ووافقها المجلس الوطني الكبير ، فإني لن أقبل ذلك ، ولو أحوجنا الأمر لوجدتم الشعب التركي بأكمله ورائي يشد أزري ، ويبذل أقصى جهده ، وإنه لجهد لو تعلمون عظيم ، وقد سبق أن برهن على ذلك مرة للعالم ، وإني مستعد أن أقوده ثانية ليبرهن لكم مرة أخرى ! »

هذه صورة خاطفة لبعض ما كان يدور في أحاديثه العديدة التي حرصت على جمعها وصيانتها توفراً مني على رغبتي يوماً في نشرها ، وكنت كلما أتاحت لي الظروف لقياه ، وقفت أتأمل هذه القوة الدافعة المجسمة فيه ، وأعجب بسوقه للحديث ومجانبته الانزلاق وتوجيهه المخاطب للناحية التي يرمي الوصول إليها ، فكنت أغبط نفسي على كل دقيقة أقضيها معه ، وكان يعرف ذلك مني ، ويفهم روحي ، ويعلم أنني أعرف بالتفاصيل كل حادث مهم مر به في حياته ، وإني أداوم على قراءة خطابه التاريخي بالتركية وباللغات الأخرى . وفي أثناء جلوسي أمامه مر الخادم النوبي الذي يخدم توحيد بك ، وهو يلبس ملابس الحفلات بمصر ، وعلى رأسه الطربوش ، ليقوم ببعض الخدمة للجالسين ، ولما أتم عمله وتراجع صاح به النازي بالعربية قائلا : تعال هون اخلع طربوشك لخلمه ، ثم قال البسه فلبسه وانصرف . وكنا على مقربة من حادث الطربوش المشهور الذي وقع في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، إذ لم تمض على وقوعه خمسة شهور ، وهنا اتجه الحاضرون إليّ ، وكانت وظيفتي ومركزي لا يسمحان لي بمواجهته بالخطاب ، فإذا هو يقول لي : متى تخلعون الطربوش ؟ وهنا وقفت متردداً كيف أجيب ، وأخيراً فتح الله عليّ بكلمة قلتها في تلك الليلة هي : « يا فخامة الرئيس ، إن الطربوش غطاء الرأس عندنا ، كما كان يوماً ما عندكم ، وها نحن لا نزال في الدور البدائي من كفاحنا وجهادنا في سبيل تحريرنا وتحقيق مثلنا العليا التي تتمثل في مواجهة الحضارة الحالية وأخذها والاستفادة منها ،

ألا ترى أن الطربوش رمز يذكرنا بعصر نعيش فيه لنخرج منه إلى عصر جديد ؟ وإنه عنصر هام يذكي روح العمل لدينا ؟ ويذكرنا كل يوم وكل ساعة بالواجب المحتم علينا وبالسعي في خلاص البلاد ؟ ولا شك أنك لم تخلع القالباق أو الطربوش إلا حينما تخلصت بلادك من قيودها وانتصرت في عراكها وكفاحها ، إننا في اليوم الذي نتخلص فيه من قيودنا ونتغلب على العقبات التي أمامنا نفكر في خلعه واستبداله ، ويكون ذلك بوحي إرادتنا وحدها ، ولكن قبل أن نصل إلى أهدافنا الكبرى ، وننقلها من عالم الخيال إلى عالم الحقائق ، لا توجد إرادة في العالم تفرض علينا أو تجبرنا على رفعه ، ذلك لأنه يذكرنا كل يوم بعراكنا الدائم المستمر ، وبأن أمامنا واجباً نعمله وأعباء نحملها وعقبات نقتحمها ومصاعب نتغلب عليها » .

ولم يكن الغازي ينتظر ذلك ، فتلألأ وجهه وأدناني منه ، وقال كلاماً كثيراً عن مبادئ الثورة الكمالية ويقظة الشعب التركي وآماله ، وهنا تحدث الزعيم الخالد عن أدوار حياته الأولى في البلاد العربية ، والتفت إلى نحو الأمير زيد ووجه إليه عبارة رقيقة ، وتكلم عن عرش سوريا وما يقال بشأنه ، ثم عرض لحادث الطربوش المشهور ، وقال كلاماً لا تسمح الظروف لي بنشره الآن ، ثم قال : « كنت أقود الأتراك في داخل حدودهم وأراضيهم ، وكنت أكتفي بذلك ، أما اليوم ، فسمعت صوتاً جديداً ، ونغمة حلوة ، جعلاني أشعر بأن هناك خارج حدودنا من يفكر مثل تفكيري ، ومن يأخذ نفسه بالعمل الصالح لخدمة بلاده » . وكان الجمع قد ازداد حولنا ، إذ وصل الغازي إلى القمة في أحاديثه ، فأخذ يعبر عن روحه وإيمانه ، وقد ارتسمت على وجهه عظمة الخالدين ، وازداد إشماع العينين من قوته الدافعة المؤمنة ، وكان الفجر قد أخذ يبدو وراء الشفق والتلول التي تحيط بأنقرة ، وأمامه شباك بعرض الحائط ، وقد بدأت شمس يوم الإثنين ٢٧ مارس ١٩٣٣ تقدم علينا ، فنظر إلى العدد المحتشدين من الأتراك وممثلي الدول الأجنبية ، وحدق في وجوههم واحداً واحداً ثم قال : « إن نهضة تركيا شاملة ، وهي ستعم ما حولها من الأمم ، إذ ليس بالتهويش والوعود تحيا الأمم ، بل بالإخلاص والعمل الصالح ، وإني لألمس نهضة الشرق وشعوره وأراها قادمة لا ريب فيها ، كما أرى فجر هذا اليوم وقدوم ثم إلينا ... انظروا إلى ضوء الشفق يحمل إلينا الشمس من الشر مطلع سراج الدنيا ، إن العالم ينتظر بعثاً جديداً ، وسيبعث الشرق — كما بدا — قوياً عظيماً » ... ثم نظر يميناً وشمالاً وقال « إن الذي يتكلم هو مصطفى كمال ، لا رئيس الجمهورية التركية مصطفى كمال التركي : إنني أشعر بأن الأمم في الشرق ستتخلص من نكباتها وويلاتها ، وإن أول ما تشكو منه هو الاستعمار فهذا لن يعيش ولن يبقى حينما تبدأ يقظتها ووعيها واتجاهها للحقائق بدل الأوهام والأحلام

« إن أكبر دعائم الاستعمار هم رجال السياسة المحترفين الذين تستعملهم الدول الأجنبية لأغراضها . لقد تأكدت مما رأيته في بلد من البلاد — ولا داعي لذكر اسمه — أن تسعين في المائة من المتصدين للمسائل العامة عملاء للدول الأجنبية ، يخدمون مصالحها على حساب أمتهم » .

وكانت الشمس قد أشرقت ، فقال : « انظروا إلى طلوع الشمس ، إنه يمثل لنا نهضة الشرق وأمله ! »

وقام الغازي من مكانه ، وقد وضع يده بيدي ، وسرت معه إلى الباب الخارجي ومنه إلى سيارته ، حيث ركب ومعه ناجي باشا وقال : « إنه يذهب لتناول طعام الفطور لدى أستاذه الجنرال ناجي باشا » . وانتهت ليلة من ليالي مصر الخالدة بأنقرة !

* * *

كثر التحدث عن تلك الليلة ، وما دار فيها من أحاديث وعلق الكثيرون من أهل الرأي ورجال السياسة والممثلين الأجانب عليها ، وكان لها صدى في الشرق والغرب ولدى الحكومة التركية والمفوضيات الأجنبية ، إلا في مصر ، وهي التي قصدت بهذه الزيارة وأكرمت بها ، لم يكن لها أي أثر ولا صدى ولا حماس ، ولا ما يشبه الحماس فيها ، وسنعرض لهذا كله في حديث لاحق .

أحمد رمزي

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان